إبتسامات وغزليات

من أدب أبى العلاء المعرى *

بقلم : دكتور محمد يوسف حسن

رحم الله عبد السلام هارون، لقد كانت له معى أحاديث ممتعة عن الأدب والكتب . أذكر منها حديثا جرى بيننا قبل رحيله بنحو عامين، كان عن أبى العلاء المعرى وتفرع عن ذكرى بحث لى نشرته مجلة مجمع اللغة العربية منذ خمسة عشر عاما بعنوان :" النزعةِ العلمية فى شعر أبى العلاء المعرى " ؛ وذلك جانب من الأدب العلائى لم يطرقه الباحثون من قبل بهذا التفصيل والشمول . وكان لهارون فى تمكينى من إعداد ذلك البحث ما نوهت به فى مقدمته . طال بيننا الحديث الذى اشرت اليه زهاء نصف ساعة ، تذاكرنا فيه بعض روائع أبى العلاء فى أغراض أدبه المتعددة . وفى غضون الحديث ، وإثر إعجابنا ببعض أمثلة جرت فيه ، تأمل عبد السلام قليلاً ، ثم قال : " رحم الله أبا العلاء ، كان دمُه خفيف " ... كذا .

وعقب الحديث تأملت أنا فى عبارة الأستاذ هارون ، الذى عهدته لا يلقى الكلام على عواهنه ، فمرت بذاكرتى أمثلة أخرى من أدب أبى العلاء تؤكد ماقصده الأستاذ بالفعل من عبارته تلك التى ألقاها بتلقائية معبرة . وأغرانى هذا أن أعود مرة أخرى لا أدرى كم رقمها بين مرات قراءاتى لآثار أبى العلاء التى تنضح من يعيد قراءتها الجديد فى كل مرة . عدت إلى « لزومياته » و« سَقطه » أقرؤها بعناية فى ضوء عبارة عبد السلام هارون فحصلت منها على جملة طيبة من الأمثلة الطريفة التى تؤكد صدق هذه

---

* هذا البحث ألقى فى الجلسة الحادية عشرة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الثلاثاء الموافق ٤ من شعبان سنة ١٤١١هـ الموافق ١٩ من فبراير سنة ١٩٩١م .

العبارة . أما عن الأمثلة النثرية والأخبار، فلست أتناولهـا فى هذا البـحث ، وإن كانت تغصُّ بها رسائله وبخاصة « رسالة الغفران » .

جانب من هذه الأمثلة الشعرية ، لا أسمية مُلحاً بالمعنى المتعارف عليه ، ولكن أسميه « ابتسامات » فعباراته وتشبيهاته تتسم بالظرف والمعانى الضاحكة الساخرة والدعابة الهادفة و « خفة الدم » حقاً ، على حد تعبير عبد السلام هارون . فهى بجانب المتعة الفنية والفكرية الراقية التى تنطوى عليها ، تدعوك أيضاً إلى إبتسام خفيف أو عريض قد يتحول أحياناً إلى ضحك خفيف ممزوج بعواطف شتى من الرحمة أحياناً أو الإشفاق أو السخط أو حتى الحزن والمرارة ! ومعظم أمثلة هذا الجزء يتصل بأغراض السخرية والنقد والحكمة ، وربما الهجاء الخفيف المهذب أو الرسائل والردود أو التعليقات القصيرة .

ويتصل الجانب الآخر من هذه الأمثلة بالغزل والتشبيب ، وفيما ندر باللهو البرىء المتصل بالغرض نفسه . ومعظمه يمتاز دائماً « بخفة الدم » إلى جانب ملاحة التعبيرات ورقتها ، ورقى العاطفة وصدقها ، ودقة التصوير ، وسعة آفاق الخيال .

وأضيف إلى هذين البابين عناوين كتبه التى يتميز معظمها بالظرف وخفة الروح ؛ كأن يسمى كتابه عن البحترى مثلاً « عبث الوليد » ، وهو كتاب نقد وتقييم لشعر البحترى واسمه الكامل «الوليد بن عبيد البحترى» . ولا تخفى عليك التورية اللطيفة فى العنوان ، فقد كان لأبى العلاء رأى فى عبث البحترى باللغة فى بعض أشعاره . وكان أبو العلاء أكثر إعجاباً بشعر أبى تمام فسمى كتابه عنه « ذكرى حبيب » ، واسم أبى تمام « حبيب بن أوس » . ولأبى العلاء كتاب ردّ به على شخص افترى عليه وحرّف بعض أشعاره فى اللزوميات ليلصق به تهماً فى عقيدته هو منها براء ؛ وقد سمى الكتاب « زجر النابح » وتلاه بكتاب آخر فى الغرض نفسه لما تمادى

ذلك « النابح » فى مطاعنه وتحريفه لأشعار أخرى لأبى العلاء الذى سمى الكتاب الثانى « نجر الزجر » . ونكتفى بهذه الأمثلة من عناوين كتبه الطريفة .

هذه الجوانب من أدب أبى العلاء التى تمتاز بخفة الدم ، لم يتعرض لها دارسو الأدب العلائى اللهم إلا بالذكر العابر أو بأبسط التعليق . ذلك لقلة ذيوعها فى أدبه ، ولما اشتهر به الرجل على المستوى العالمى من أنه من أشد الشعراء والفلاسفة تشاؤماً ، وزهداً ، وبعداً عن الهزل ، وتمسكاً بالجد الصارم. والحق أن أبا العلاء لم يكن متشائماً بالمعنى الفلسفى المعروف الذى كان يتصف به الفليسوف شوبنهاور مثلاً، أو بالمعنى السيكولوجى الذى كان يتصف به ابن الرومى . ولم يكن أبو العلاء كذلك زاهداً بالمعنى الذى يتصف به غلاة المتصوفة ، كما لم يكن فقده بصره السبب الحقيقى لما وصف به من التشاؤم والزهد ، أو كان السبب فى نعيه على الحياة وذمه لها وإعراضه عن مباهجها ولذاتها . لكنه كان إنساناً مثالياً ، ملتزماً، أبىَّ النفس ، عقلانياً ، حر الفكر عميقه ، قمة فى حدة الذكاء ونفاذ البصيرة ؛ فلم تعجبه صروف الدنيا ، ولم يعجبه سلوك الناس وأحوالهم . أثار ذلك سخطه وضيق نفسه فراح يسخر من الحياة ومن الناس ، ويعرى زيفها وزيفهم، ويرفض اللذات المتاحة من تعامله معها ، فجعلها عنده زائفة ، شريرة أو خادعة . وقد عبر عن مسلكه هذا فى الحياة بأبيات من أجمل أشعاره وأصدقها ، فيها يقول :

" وقال الفارسون حليفُ زهد
وأخطأت الظنون بما فَرسنَهْ
ورضت صعاب آمالى فكانت
خيولاً فى مراتعها شمسنه
ولم أعرض عن اللذات إلا
لأن خيارها عنى خنسنه
ولم أر فى جلاس الناس خيراً
فمن لى بالنوافر إن كَنسنَه ؟!"

نعم أخطأت ظنون المتفرسين فى أدب أبى العلاء وسيرته لما عدّوه من

المتشائمين الزاهدين ، فلم يكن إلا ساخطاً ، برماً بالحياة والناس ، قاسى النقد لها ولهم ، قاسياً أيضاً على نفسه مترفعاً بها عن زيف المباهج وخداعها . ومع ذلك ففى نقده القاسى ، وسخطه المر، وحكمته الجادة ، وتعبيراته المحكمة الصائبة عن رفض اللذات التافهة الزائفة وإعراضه عن الدنيا والناس ؛ كانت أقواله فى هذا تنطوى غالباً على السخرية الخفيفة الظل والدعابة اللطيفة الهادفة ، وربما المفارقة المضحكة ، كما سنرى فى الأمثلة المختارة التى سنسوقها فى هذا البحث .

ولقد كان أبو العلاء يؤثر أن يرتب أعماله الشعرية حسب القوافى ، كما يظهر فى اللزوميات . وقد اختلف دارسو أبى العلاء فى أسباب ذلك ودواعيه وكيفيته . وأرانى فى هذا البحث أقفو أثره دون سبب واضح ، فأرتب أمثلتى حسب القافية متشبهاً بصنيعه ، وربما كان يحسن لو عالجتها موضوعياً مثلاً ، فلست مضطراً إلى غير ذلك كما اضطر هو فى بعض أعماله فأسماه إسماً ظريفاً أيضاً هو « سجع المضطرين » ولا أدرى لماذا ؟ فالكتاب مفقود على أى حال .

ولنبدأ الآن الأمثلة المختارة ، وسنرتبها فى بابين :

الباب الأول : فى الإبتسامات

١- من قافية الهمزة ، قال رحمه الله :-

" تواصل حبل النسل ما بين آدمٍ
وبينى ، ولم يوصَل بلامى باءُ
تثاءب عمرو إذ تثاءب خالدٌ
بعدوى ، فما أعدتنى الثؤباء "

لم يتزوج أبو العلاء ، وقد كان له رأى فى المرأة والزواج سأعرض له فى مناسبته ، ولكنى أستبق السياق وآتى بشاهدين يؤكدان أنه لم يرفض الزواج من حيث المبدأ ، بل لأنه كان يهاب عواقبه فقط ، قال :

" ومن رزق البنين فغير ناءٍ
بذلك عن نوائب مسقِمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق
وأرزاء يجئن مُصمِّمات "

وقال :

" أرى النسل ذنباً للفتى لا يقالُه

فلا تنكحنّ الدهر غير عقيم ! "

ونمر كراماً على هذه السخرية الطريفة لنتأمل البيتين اللذين نحن بصددهما ؛ فإن ما ورد في الشاهدين كلام جادّ نوعاً ، لكن انظر إلى تعبيره عن موقفه من هذه المسألة عموماً فى بيتيه من هذه القافية ، تر السخرية اللطيفة من الموضوع كله ، والتشبيه الهزلي الضاحك سواء فى البيت الأول أم في الثاني . وانظر أيضاً إلى التلاعب الظريف بالألفاظ والحروف للإيحاء بأكثر من معنى ، فإنك لتغلبك الإبتسامة التى قد تنقلب إلي ضحك خفيف . فاللام فى اللغة : شخص الإنسان وكل شيء شديد؛ والباء والباءة : الزواج والنكاح ، فإلى أى المعانى قصد أبو العلاء ؟ وما يدرينا فقد يكون قصد شيئاً آخر غير المعانى المباشرة ؛ ربما يكون قصد حرفي اللام والباء في كلمة « حبل » التى بالشطر الأول ، وأن هذا الحبل الذى يصل بين آدم وأبنائه جميعاً قد إنقطع عنده أو أنه « حُلَّ » بسقوط الباء التى بين الحاء واللام . لقد تحير الشراح من قديم فى تفسير هذين البيتين ، فمن لنا « براحة اللزوم » كتابه ذاك المفقود الذى شرح فيه غريب اللزوميات ! لترتاح قلوبنا ونفوسنا إلي حقيقة ما قصد إليه أبو العلاء .

٢-وأما من قافية الباء ، فإليك هذا البيت اللطيف ، وهو عندى أجمل وأطرف ما قيل من شعر فى عالم القُبل وأنواعها ودرجاتها أو درجات الحساب عليها كما يقول أبو العلاء :

" كم قبلة لكِ فى الضمائر لم أخف

فيها الحسابَ ، لأنها لم تُكتبِ "

وهذا البيت من إحدى غزلياته التى سنعرض لها فى الباب الثانى ، ولكن انظر إلى المعنى الطريف الذى لم يسبقه إليه أحد : هى قبلات ولكن فى سره وضميره يكثر منها كما يشاء فليس عليه فيها إثم ولا حرج ولا حساب !

ومن القافية نفسها يقول مما يثبت أنه لم يكن يكره الدنيا ، ولكن يسخر ممن يحوّل حبها عذاباً لنفسه :

" نقمتَ على الدنيا، وما ذنب أسلفت
إليـــك ، فـأنت الظـــالم المتكـذِّبُ
وهبها فتاة ، فهل عليها جناية
بمن هو صَبٌّ في هواها معذَّب ؟! "

والمعنى ســاخــر ظريف ، وغــيــر مسـبـوق. ومن قـافـيـة البـاء أيضـاً تأمل معنى هذه التورية البعيدة الساخرة التى تخفى إلا على الحصفاء المتمكنين من علم البديع وتريك أنه حتى فى أكثر المواقف جِداً وقسوة فى النقد والسخرية لا يتخلى عن دعابته المضحكة المبكية فى آن واحد؛ يقول :

" زيادة الجسم عنَّت جسم حامله
إلى التراب ، وزادت حافراً تعباً "

ماذا يكسب الإنسـان من الإفراط فى المأكل والمشـرب ، يزداد جِرمـه فـيُتـعب حامله فى الدنيا وهونفسـه ، وحـامله إلى الأخـرى فـوق الآلة الحـدباء ، وهـو يُتـعب الحـافـر أيضـاً ، فـمـا هـذا الحـافـر ؟ هل يقـصـد أبو العـلاء حـافـر القـبـر ؟ أم أى حافر يقصد ؟!

٣–ومن قافيـة التـاء ، هـاك أبيـاتاً ثلاثة يقول فيها :

"إنما نحن فى ضلال وتعليل
فإن كنتَ ذا يقـــين فهـــاتِه
ولحب الصحيح آثرت الروم
إنتســاب الفتى إلى أمهاته
جهلوا من أبوه إلا ظنونا
وطَلا الوحش لاحق بمهاته "

أية ســخــرية ، وأية «خـفـة دم» فى مـعـالجـة مـوضـوعات عـويصـة ومـحـرجـة كـهذه: حـياتنا كلهـا ظنون ، أما اليقين فمحال . الروم يتمسكون بالصحيح ولكن لا يستمسكون بالأخلاق . لذلك حسموا الموضوع ، فقرروا نسبة الفتى إلى أمه لا إلى أبيـه ، أمـا نحن فـآثرنا التخـبط فى الضلال والشكوك على حسم الأمور !!

٤ – ومن قافية الحاء أسوق هذا المثال :

" ورُبَّ مسمّىً عنبراً وهو موهتٌ
وليثاً وفيه إن يهيجَ نُباحُ "

كم دار على الألسنة هذا المعنى الساخر فى الأمثال والأغاني المسماة

بالمونولوجات ، ولكنى لم أر صياغة وطرافة سياق يلحان فى الدعوة إلى الابتسام الممزوج بالإشفاق والسخرية من هذه الصياغة وهذا السياق .

٥-ومن قافية الدال لدى مثالان تغلبك عند سماعهما الابتسامة برغم ما يعالج القول فيهما من موضوعات ملؤها الحزن والإشفاق . مرض أبو العلاء فأشار الطبيب على من يتولى أمره أن يطعمه فروجاً (وكان أبو العلاء كما هو معروف من غلاة النباتيين) فلما تحسس الطعام بيده أجفل وقال على الفور :

" إستضعفوك فوصفوك

فهلا وصفوا شبل الأسد "

فانظر إلى تلك المُلحة الساخرة التى كاد تتفجر من إطار الحكمة الجادة لمنطوى عليها سبب القول ، والمنطوية على كثير من الرحمة والفزع والسخرية ى آن واحد . وتأمل رد الفعل الحاد إبتسم للسخرية النافذة الطريفة ؛ فهل كانوا حقاً يقدمون له شبل الأسد لو أن لطبيب قد وصفه له ؟! .

ومن قافية الدال أيضاً يقول :

" يوصى الفتى عند الحِمام كأنه

يمضى فيقضى حاجةً ويعود "

حكمة بليغة تسخر من شدة تعلق الإنسان بالدنيا حتى إنه ينسى أنه مع الموت لا رجعة إليها أبداً ، فيكتب وصيته ويشدد فيها كأنه سيعود ويراقب بنفسه تنفيذها . لكن تأمل الصياغة والتشبيه الذى يولد ابتسامة ملؤها الإشفاق والسخرية.

٦-ومن قافية الراء قوله :

" وما تدرى أمن ركب المهارَى

ألبٌّ إذا نظرتَ أم المهارَى ! "

كم تندرنا ونحن صبية على من نبغض أو من نضيق به بمثل هذا المعنى إذا رأيناه يمر بنا ممتطياً دابته . ولكن ما رأيك فى هذا الإطار الجميل الذى صيغ فيه هذا الهجاء المهذب المفرط فى السخرية ، الداعى إلى التفكُّه والابتسام فى آن واحد ؟

وأما عناؤه من خادمه العنيد الخبيث، فقد وصفه بهذا القول الطريف :

ومن عناء الليالى خادم ضغِنٌ
إن يؤمر الأمر يفعل غير ما أُمِرا "

وقد قالوا قديماً : إذا حسنت أخلاق المخدوم ، ساءت أخلاق الخادم . ونحن لا نشك فى أن أبا العلاء كان عطوفاً كريماً لين الجانب ، لذلك ساءت أخلاق خادمه ، ولكن أين هذا التعبير من خفة ظل التعبير العلائى ؟

وفى الزواج بأكثر من واحدة قال أبو العلاء من القافية نفسها :

" إذا كنت ذا ثنتين فاغدُ محارباً
عَدوّين ، واحذر من ثلاث ضرائر
قرانك ما بين النساء أذية
لهن فلا تحمل أذاة الحرائر
وإن كنت غِراً بالزمان وأهله
فتكفيك إحدى الآنساتِ الغرائر"

فالزواج بواحدة حرب في جبهة واحدة ، فكيف تفتح على نفسك جبهتين ناهيك عن ثلاث ! هذا إن كنت مؤهلاً لخوض هذه الحرب ، أما إن كنت قليل التجربة سهل الانخداع ، فتكفيك زوجة واحدة فقط شريطة أن تكون هى الأخرى غريرة مثلك .

ومن قافية الراء أيضاً يقول :

" سما نفرٌ ضرب المئين ، ولم أزل
بحمدك مثل الكسر يضرب فى الكسر"

أرأيت إلى هذه الشكاة الحزينة من ظلم القدر وقلة الحظ ، وإلى ما تثيره عندك من إشفاق و أسىً وعطف ؟ ثم أرأيت إلى هذه الفكاهة الرياضية التى يستعين بها على شرح حاله فيثير عندك إبتسامة تسرى عنك بعد الأسى والإشفاق والعطف ؟

٧-أما من قافية الزاى ، فاسمع هذين البيتين :

" أردت إهانتى فحماك منى
قضاءٌ فىَّ كان له نُجوز
وجدتنى اللجين أو الثريا
وتصغير المصغرِّ لا يجوز! "

تأمل هذه الملحة اللغوية الطريفة التى يدافع بها عن كرامته ، وانظر إلى الفخر الذى هو تواضع ، والتواضع الذى هو فخر ، وفكِّر وابتسم معى للمعنى الذى أراده من هذا التشبيه الطريف والاستناد فى دفاعه إلى قاعدة لغوية لا يجوز

كسرها . يقول أنا اللجين أو الثريا «وهى صيغ تصغير كما نرى ولكنها تدل على علو الشأن » ، فإن أردت إهانتى محاولاً تصغير شأنى فلست محققاً هدفك فإنه لا يجوز علىّ التصغير.

٨–ومن قافية السين ، قال يصف زهده الإختيارى أو الجبرى ، بصورة لطيفة :

" يُقنعنى بُلْسُنٌ يمارس لى
فإن أتتنى حلاوةٌ فبَلَسْ "

البُلسن العدس ، والبَلَس التين . وهذان طعامه وحلواه لا غيرهما ، فانظر كيف عبر عن فقره أو زهده أو كليهما بما يرسم على شفتيك ابتسامة فيها كثير من الرحمة والعطف والإعجاب .

٩–ومن قافية الصاد ، أثر عنه أنه عمل كتاباً لأحد الكبراء فى بغداد وأسماه «الفصوص » ، وزعموا أنه سقط منه فى دجلة وهو يحمله إليه ، فقال فى ذلك بعض الشعراء :

" قد غاص فى النهر كتاب الفصوص
وهكذا كل ثقيل يغوص

فرد على ذلك بقوله :

" عاد إلى معدنه ، إنما
توجد فى قعر البحار الفصوص "

رد مفحم لطيف ، ولو أن بعضهم ينسب هذا البيت وقصته إلى شخص آخر ، ولكن الأسلوب والقصة عندى بأبى العلاء أشبه ، والعبرة بالتوثيق على كل حال .

١٠–ومن قافية الطاء ، قوله :

" أجاهد بالظهارة حين أشتو
فذاك جهاد مثلى والرِّباط
مضى كانون ما استعملت فيه
حميمَ الماء ، فاقدم ياشباط
تُشابه أنفس الحشرات نفسى
يكون لهن بالصيف ارتباط "

انظر إلى نوع الجهاد الذى يجوز عليه ، فهو ضعيف ضرير لا يقدر على الجهاد الشرعى ، ومع ذلك لا يعفيه القدر من جهاد آخر يترتب على فقره ورقة حاله، أو يفرضه هو على نفسه بالزهد والتقشف ، فقد اختلفت الآراء فى حالته

المادية (وهذه قضية من سيرته لم تحسم بعد) فجهاده هو تمضية الشتاء بظهارة مالها بطانة ، وبمرور كانون عليه بل شباط أيضاً لا يستحم فيهما إلا بالماء البارد . ثم تأمل معنى فى البيت الثالث والتشبيه الطريف فيه الذى يثير الابتسام بل ربما الضحك المسموع بعد ذلك الإشفاق والرثاء الحزين لحاله .

١١-**وفى قافية العين** ، تعود بنا هذه الأبيات إلى مسألة الزواج بأكثر من واحدة ، وفيها يقول :

" تزوجَ بعد واحدة ثلاثاً

وقال لعرسه : يكفيك ربعى

فيرضيها إذا قنعت بقوت

ويرجمها إذا مالت لتبع

ومن جمع إثنتين فما توخى

سبيل الحق فى خمس وربع"

انظر إلى تدعيمه رأيه فى الزواج بأكثر من واحدة بعمليات حسابية غاية فى الصحة والضبط ، وغاية فى السخرية المرة المثيرة للإبتسلم .

١٢-**ومن قافية الفاء** يقول :

وأكرمنى على عيبى رجالٌ

كما رُوى القريض على الزحاف "

يشكر من يكرمونه ويحتفون به ويحبونه بالرغم من عيوبه ، ثم يردف فى الشطر الثانى بما يعنى عيوباً لا تنتقص من قدره على أية حال (ومن منا ليس له عيوب ، على حد قوله) ، فالشعر لا ينقص من قدره الزحاف (المسموح به طبعاً) . كأنه شكر الناس على تكريمهم إياه فى الشطر الأول ، لكنه مدح نفسه بتشبيه طريف فى الشطر الثانى .

١٣-**ومن قافية الكاف** ، قال عن الدنيا فى شيخوخته :

" تباركت يارب العلا أنت صُغتها

فليتك فى أرزائها لم تبارك

أعانقها عند الوداع تشبثاً

وكيف وداعٌ بين قالٍ وفارِكِ "

يعجب للإنسان يحب الدنيا كل هذا الحب بالرغم من كثرة أزرائها ، حتى إنه عند الوداع يعانقها متشبثاً بها لا يريد فراقها ، ثم يتساءل فى سخرية نافذة

تساؤلاً مراً ظريعاً فى آن واحد : وهل يكون هناك وداع حار كهذا بين هاجرٍ ومبغضة مشاكسة ؟!

١٤-وعن التباهى الأجوف بالكُنى **الألقاب** إليك قوله الساخر ، من قافية اللام :

عرفتك جيداً يا أم دفرٍ
فما إن زلت ظالمةً فزولى
بيتُ أبا العلاء ، وذاك مينٌ
ولكن الصحيح أبو النزول "

فابتسم معى لهذا التعبير الساخر وشيق ، الضاحك الباكى ، فهل سمعت حداً يكنى بأبى النزول ! هو يعرف تماماً رزاء هذه الدنيا التى يسميها دائماً « أم .قر » ، يعرف ظلمها ويعرف الحظ القليل لذى يناله النابهون فيها فتنزل فيها أقدارهم كالكسر يضرب فى الكسر على حد ما سبق من قوله ، فى حين يعلو قدر الخاملين ضرب المئين .

ويقول من القافية نفسها عن الحظ وأقداره المحيرة أيضا بنفس السخرية والتشبيهات الطريفة التى تملؤها الحسرة حتى تفيض ببسمة ولو أنها شاحبة راثية على وجه المتعمق فى فهم المعنى ، فاستمع إلى قوله :

لا تطلبنَّ بغير حظٍ رتبة
قلم البليغ بغير حظٍ مِغزلُ
سكن السِّما كان السماء كلاهما

هذا له رمح ، وهذا أعزل

القلم فى يد البليغ القليل الحظ لا يغل عليه أكثر مما يغل المغزل فى يد الغزال . حتى النجوم فى السماء لا تشذ عن هذه القاعدة ، فالسماكان (وهما نجمان معروفان) أحدهما يسمى السماك الرامح لأن له ما يشبه الرمح من نجوم مصاحبة له ، والآخر اسمه السماك الأعزل لانه ليس له مثل هذا ، ومع ذلك فكلاهما يسكن السماء ! .. هذا له رمح وهذا أعزل .

١٥-ومن قافية الميم ، أسوق هذا المثال فى وصف من يفقد الحس حتى إنه لا يميز بين المخازى والفضائل ، فهو كالذباب الذى على يحط على الحلوى أو الثمر الشهى فيزرق عليها . يقول أبو العلاء :

" ومن يفقد الحس لا يعرف بمخزية
إن الذباب متى يعلو الجنى يَنِمِ "
ونَم الذباب خَرِىءَ .

١٦-وفى قافية النون ، لنا مقدمة قبل إيراد المثال الأول ، فكثير ما قال أبو العلاء من شعر ونثر فى مسألة الشك الفلسفى وانعدام اليقين ، وإن هذه هى القاعدة الوحيدة اليقينية ، أما عداها فقابل للشك ، وقد أشرنا قبلاً إلى أبياته التى أولها :

' إنما نحن فى ضلال وتعـ
ـليل ، فإن كنت ذا يقين فهاته "

ونشير إلى واحد من أهم أبياته فى هذا المجال والذى يقول فيه :

أما اليقين ، فلا يقين ، وإنما
أقصى اجتهادى أن أظن وأحدسا

ومعنى كلامه كله فى هذا المجال أن الشئ اليقين الوحيد فى هذا العالم هو الشك ، وإذن فهو قد سبق ديكارت فى هذا ، وسبق أيضا علماء الفيزيقا النووية المعاصرين أنفسهم الذين توصلوا بعد أبحاث مضنية فى التركيب الجسيمى للذرة إلى ما أسموه " قاعدة عدم اليقين (Uncertainty Principle) التى وضعها ڤايزنبرج وزملاؤه . ولكن مالنا والكلام فى مجال العلم فاسمتع إلى قوله فى مجال الشك والتظنى :

وقد عدم التيقن فى زمان
حصلنا من حجاه على التظنى
فقلنا للهزبر أأنت ليثٌ ؟
فشك ، وقال علّى أو كأنى

تأمل هذه الفكاهة المليحة ، وتذوق هذه الدعابة الساخرة فى موضوع من أعوص مواضيع العلم الطبيعى والفلسفة . تفكه فى سخرية مرحة وقال : لأن الشك يجب أن يكون القاعدة ، شككنا فى الهزبر وسألناه عن حقيقته ، فشك هو الآخر ، وأجاب : لا أدرى فقد أكون ليثا ، أوربما كنت أشبهه فقط ! أجل نحن فى ظلام دامس من الشك يستوى فيه الأعمى والبصير ، واستمع إلى تعبيره اللطيف عن هذا المعنى وما يحتويه من سخرية مرة ، وفكاهة مرحة ، يقول أبو العلاء :

وبصير الأقوام مثلى أعمى
فهلموا فى حندس نتصادم

وقد كان حق هذا البيت أن يأتى فى قافية الميم ، ولكن السياق غلب .

ومثال آخر من قافية النون ، استمع إلى قوله :

" أنا كالحرف ليس ينقط والله
حسيب الجهـــال إن نقطونى
بتٌ كالواو بين ياء وكسر
لا يلام الرجال أن يسقطونى

يشبه نفسه بالحرف غير المنقوط لا يميز حقيقته إلا أهل العلم والفطنة ، أمـــا الجهال فحسيبهم الله لا يميزونه ولا ينزلونه حق منزلته ، ثم يشكو من حظه هذا فيقول إنه صار كواو بين ياء وكسر تحتم القاعدة اللغوية حذف هذه الواو من الكلمة ، فإن أغفله الناس كيف يلومهم أحد على ذلك ؟! فاعطف معى على شكاته المستر حمة من الجهال الذين لا يعرفون قدره ، وابتسم لهذا التشبيه الظريف ، واضحك من هذا العبث المرح العبقرى بقواعد اللغة والكتابة الذى عبر به أدق تعبير وأفكهه عما يعانيه .

وآخر ماأورده من قافية النون قول رهن المحبسين :

" قالوا : العمى منظر قبيح
قلت بفقـــدانكم يهـــون
والله ما فى الوجود شئ
تأسى على فقده العيون "

ألا تذهب نفسك حسرات على توجعه الحزين من تعيير بعضهم إياه بالعمى ، لكن قوله الحزين الساخر بهم ، وهجاءه المهذب النافذ إياهم يردان إلى نفسك الراحة بل الابتسام لهذه العبقرية فى الرد الذكى والهجاء المهذب الأليم .

١٧-ومن قافيه الهاء ، إليك قوله :

" مالى غدوت كقاف رؤبة قُيدت
فى الدهر لم يقدر لها إجراؤها
أعللتُ علة قال ، وهى قديمة
أعيا الأطـــبة كلهم إبراؤهـــا "

تأمل الحزن يقطر من هذه الأبيات أسى منه على حاله لفقد ناظره ولقعوده فى عقر داره (وهذان هما المحبسان اللذان كنى نفسه بهما ، فقال : أنارهين المحبسين) ، ولكن من خلال ضباب هذا الحزن تأمل التشبيه العبقرى الظريف الذى يرسم الابتسامة على شفتيك ،

ويفجر الرحمة الراحمة فى قلبك . يقول إنه سكن فى بيته لا يغادره طوال حياته (قرر ذلك بعد عودته من بغداد لأسباب لا يتسع البحث هنا لتناولها) فصار بذلك كالقاف التى جرت رَوِياً ساكنا على طول أرجوزة رؤية الشهيرة الطويلة) وقد ألزمها رؤية السكون لا تتحول عنه بطول الأرجوزة . ويتساءل فى البيت الثانى عن علته تلك المؤلمة المتسعصية على الشفاء . وياللحزن المرير يمزجه بتشبيه عبقرى ظريف يتيح لعينيك الدامعتين استهلالة ابتسام متحفظ ، فعلته تلك كعلة " قال " وما يشبهها من الأفعال أصابت منه العين كما أصابت قال وأخواتها فى أعينها، فتلك الأفعال تكون عين الفعل فيها أصلا واواً أوياءً تنقلب دائما ألفاً لا تتحول عن ذلك ولا تبدأ من تلك العلة أبدا ولو تحالف على علاجها نطاسيو اللغة .

ومن قافية الهاء أيضاً تأمل هذا التلاعب اللفظى الظريف فى هذا البيت الذى يصف فيه غرامه بسُعدى ، وما يتركه تعززها وتمنعها عليه فى نفسه من ألم ووجد شديدين، ثم اكتم ضحكة تكاد تنفجر من بين شفتيك أو أطلقها لتسرى عن فؤادك كما سرت أغلب الظن عن فؤاد سُعدى عندما تناهى إلى سمعها قوله :

" بنا من هوى سعدى البخيلة كاسمها
إذا زايلته عين سعدى وسينها"

أى : احذف السين والعين من كلمة " سعدى " فما يبقى منها إلا " دا " أو داء ، ذلك ما يتركه هوى سعدى فى نفسه من تعززها وشدة تمنعها عليه !

١٨- وإذ نختتم هذه الأمثلة المرتبة على حسب القوافي بهذا اللغز الغرامى اللطيف عن سعدى وهواها ، نورد هذه الابتسامة الخاصة ، ولو أن حقها أن تكون فى قافية اللام ، لكنا نوردها فى الختام لأنها قصيدة كاملة قصيرة ، ولأنها تضج كلها بالدعابة الراقية الخفيفة الروح ، وبالاعتذار اللطيف المرح ، وبالتشبيهات الباسمه الرائعة .

أنفذ أبو العلاء هذه القصيدة إلى شخص أديب يكنى نفسه بصريع البين ؛ يقول فيها :

" تفهَّم ياصريع البين [1] بشرى
أتت من مستقلٍّ [2] مستقيلِ [3]
دُعيتَ بصارع ، فتداركته
مبالـــغةٌ ، فـــرُدَّ إلى فعـــيل
كما قالوا : عليم إذ أرادوا
تناهى العـلم فى الله الجليل
قد استحييت منك ، فلا تكلنى
إلى شئ ، سوى عذر جميل
وقد أنفذت ماحقى عليه
قبيح الهجو أو شتم الرسـول
وذاك على انفرادك قوت يوم
إذا أنفقت إنفـــاق البخـيل
فكيف وأنت علويٌّ السجايا
فليس إلى اقتصادك من سبيل
فهب أنى دعوتك للتصافى
على غـير المعتـــقة الشَّـــمول
على راح من الآداب صرف
ونُقلٍ [4] من بسـيط أو طـــويل
وقد يُقوِى [5] الفصيحُ فلا تقابل
ضعـــيف الـــبر إلا بالقـــبول
فإن الوزن ، وهو أتم وزن [6]
يقام صغاه بالحرف العليل [7]
فإن يك ما بعثتُ به قليلاً
فلى حال أقل من القليل "

يبدو أن " صريع البين " هذا كان قد طلب من أبى العلاء عونا ماليا ، فأنفذ إليه ابو العلاء ما قدر عليه ، وكان شيئا قليلا يستحى منه ، فخشى أن يكون قد خيب ظن الرجل وأحرج نفسه معه فأحب أن يداعبه ويفاكهه بهذه القصيدة التى أرسلها إليه مع المبلغ حتى يرفع عنه وعن نفسه الحرج والخجل ، يقول له : أتسمى نفسك " صريع البين " أى من صرعه الفراق ، وعندى أنك صريع لا بمعنى مصروع ، وإنما أنت صريع بمعنى

---

(١) البين : الفراق .

(٢) المستقل : الذى يستقل الشىء ، أى يراه قليلاً .

(٣) المستقيل : من استقال العثرة ، أى سأل أن يعفى منها .

(٤) النقل : ما يتنقل على الشراب من طعام خفيف أو كوامخ .

(٥) يقوى الشاعر : خالف بين حركة الروى المطلق بكسر وضم ، وأقوى الرجل : افتقر .

(٦ ، ٧) أى وزن بحر الطويل الذى يقام ميله على حرف العلة .

صارع لصرعك البين وغلبتك إياه ، لكن الكلمة أدركتها مبالغة فردتها إلى وزن "فعيل" كما يقولون " عليم " إذا أرادوا المبالغة فى صفة العالم بالعلم !

وبعد هذه المقدمه من الدعابة الجميلة، يعتذر أبو العلاء من ضآلة المبلغ الذى أنفذه إلى الرجل ، فيقول فى تواضع ظريف ، واستحياء جم ، إنه لا يستأهل على ما فعل إلا قبيح الهجاء أو شتم من أوفده إليه بالمبلغ .

ونتجاوز هنا من القصيدة بيتين أو ثلاثة من الاعتذار الرقيق المنطوى أيضاً على التفكه والمداعبة ، ثم نأتى إلى أفكه جزء من القصيدة ، وهو الذى يقول فيه لصريع : هب أن هذا المبلغ هو بمثابة دعوة منى إليك لنلتقى ونتصافى ونتلاطف بمجلس أنس ظريف تدار فيه كؤوس الراح ، ولكنها راح من الآداب الصرفة التى تسكر الألباب وتلعب بالعقول من فرط حلاوة ما بها من فنون ، ولنتداول مع تلك الكؤوس نُقلا من القوافى الطروبة على أوزان البسيط أو الطويل من بحور الشعر .

أيها السادة :

لما شرعت فى إعداد هذا لبحث بغية أن ألقيه بين يدى مؤتمركم ، كنت أعتقد أنه سيمكننى الإحاطة ببابيه فى الوقت المقدر لإلقائه . ولكن تمام الكلام عن الابتسامات استغرق الوقت كله ، لذلك فإنى أؤجل الكلام عن الباب الثانى (الغزليات) إلى المؤتمر القادم إن شاء الله .

دكتور محمد يوسف حسن

عضو المجمع